الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

ذنوب الخلوات:طريق الهلاك

360 KNO SMART SCHOOLING
unicef
UNESCO United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK
AMIEF American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

تخيّل معنا،

مسرحاً مظلماً، تُسدل عليه الستائر الثقيلة، وتنطفئ فيه الأضواء الكاشفة كلّها، ومقاعد الجمهور غير موجودة، ولا صوت لمصفّقين، وهنا في هذا المسرح الخفي، يقف الإنسان وحيداً مع نفسه، يعتقد أنّه بمأمن من كلّ رقيب وحسيب... إلا واحداً...

ولهذا المشهد المتخيّل، ما يقابله في الواقع، فالمسرح هو "الخلوة"، بما تعنيه من مساحة روحيّة تتحوّل إلى ساحة معركة حقيقيّة بين النور والظلمة في أعماق الإنسان، فهي حالة وجوديّة تكشف عن جوهر الإنسان الحقيقي، وتُظهر مدى صدق علاقته بخالقه، وفيها يتصارع صوتان: صوت الضمير الذي يهمس:﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق:14)، وصوت الشيطان الذي يوسوس "لا أحد يراك الآن"، وبين هذين الصوتين، يقرّر الإنسان مصيره الروحي.

فالإنسان سيغرق في ظلمة طريق مظلم إذا اختار سيره بما يقترفه من ذنوب خلوات، وهي المعاصي التي يقوم بها في سرّه، بعيداً عن أعين الناس، في ظلمة الليل، أو في أماكن منعزلة، أو في عوالم رقميّة يخال فيها الإنسان نفسه أنّه مختفٍ عن الأنظار، على علمه اليقينيّ أنّ اللّٰه مطّلع عليه، فتراه يتوارى وراء الأبواب المغلقة في تناقض مخيف، فهو يخشى المخلوق الضعيف أنْ يراه، ولا يبالي برقابة الخالق القويّ عليه.

والمخيف بالأمر أنّ ذنوب الخلوات ليست أمراً عابراً وخطأ مقترفاً وحسب، بل هي خلل عميق في البنية النفسية والأخلاقيّة للإنسان، تتأتّى من ضعف استحضار الرقابة الإلهية، فعندما يغيب عن قلب الإنسان استحضار أنّ اللّٰه يراه ويسمعه ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإنّه يقع في وهم أنّه بمأمن من الرقابة، وهذا الوهم هو أوّل خطوة في طريق السقوط، وتحدث أيضاً بسبب انفصام الشخصية الإيمانية إذ يعيش الإنسان ازدواجيّة مؤلمة، فهو بين شخصية علنية تتظاهر بالصلاح والتقوى، وشخصية خفيّة تنغمس في المعاصي والشهوات، وهذا الانفصام يخلق توتّراً نفسياً هائلاً ويقود إلى مزيد من الانحراف.

ومن ثمّ تتأتّى من الاستهانة بعظمة اللّٰه، فمن يذنب في السر يستهين بعظمة اللّٰه وقدرته، فهو يتصرّف وي ْكأنّ اللّٰه غير موجود أو غير مطّلع على أحواله وما يقوم به.

ولهذه الذّنوب آثار مدمرة على الروح والحياة، فدمارها الروحيّ يتمثّل في دمار العالم الروحيّ للإنسان، من إحباط للحسنات، فقد حذّر النبي صلى اللّٰه عليه وسلم من ذلك بقوله: " يؤتى يوم القيامة برجال لهم أعمال كجبال تهامة بيضاً فيجعلها اللّٰه هباء منثوراً، لأنهم كانوا إذا اختلوا بمحارم اللّٰه انتهكوها" حديث صحيح، وهنا حقيقة مرعبة مفادها أنّ ذنوب الخلوات قد تحبط الأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان في العلن، ناهيك عن موت الضمير فاستمرار الإنسان في ارتكاب ذنوب الخلوات، يجعل ضميره يبدأ في الموت تدريجياً، فيصبح أقلّ حساسية للخطأ، وأكثر تبريراً للمعصية، إلى أنْ يصل إلى حالة من الخدر الروحي الكامل، وهناك فقدان البركة، فتختفي البركة من حياة مرتكب ذنوب الخلوات، ويشعر بالفراغ رغم امتلاء حياته، وبالجوع رغم الشبع، وبالظمأ رغم الارتواء، وهذا الفقدان للبركة يشمل المال والصحة والعلاقات والوقت، وفقدان للطمأنينة والسكينة فهو في قلق وتوتّر مستمريّن، وصعوبة في العبادات، فلا تركيز أثناء الصلاة، وشعور بالخجل الشديد عند قراءة القرآن، وإحساس متزايد بالنفاق الروحيّ والازدواجية، أمّا دمارها الجسديّ، فيتمثّل في كون هذه الذنوب تجعل وجوه مقترفيها سوداء معتمة، وتغشى قلوبهم الظلمة، ويصيب أبدانهم الوهن، وتمتلئ أرواحهم بالبغض والكراهية.

وهكذا تصبح النفس أسيرة لما اعتادته في الخفاء، فتبدأ بذرة الخطيئة الصغيرة في القلب كالشرارة الخفية التي تأكل الروح من الداخل، حتّى تحوّل العبد من طالب للرحمة إلى هارب من نور اللّٰه، إلاّ أنّ رحمة اللّٰه أوسع من ذنوبنا، والطريق إلى الشفاء يبدأ بالاعتراف بالمرض، فكما أنّ الجسد المريض يحتاج للدواء، فإنّ الروح الجريحة تحتاج للتوبة النصوح والصبر على رحلة التطهير.

وهذ الرحلة، هي رحلة شفاء روحي، وبدايتها إعادة اكتشاف الرقابة الإلهية، وهذا يعني المعرفة العقلية بأنّ اللّٰه يرى كلّ شيء، والإحساس القلبي العميق بهذه الحقيقة، ومن ثمّ تأمّل أسماء اللّٰه الحسنى الدّالة على رقابته وعلمه، من مثل الرقيب، العليم، الخبير، البصير، السميع، وجعل هذه الأسماء جزءاً من الذّكر اليومي، والتأمّل في معانيها العميقة، ناهيك عن ضرورة استحضار الآيات القرآنية خاصّة آيات الرقابة الإلهيّة كجزء من التلاوة اليوميّة، كاستحضار قول اللّٰه تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: 19).

وأهمّ الخطوات يكمن في العمل على تطهير البيئة المحيطة، والتخلّص من المثيرات وإزالة كلّ ما يمكن أنْ يثير الشهوات أو يحفّز على المعصية من صور، وأفلام، وكتب، ومواقع الإلكترونية، وحتّى الأشخاص الذين يشجّعون على المعصية، فضلاً عن ضرورة إعادة تصميم المساحة الشخصية، لتصبح أكثر تذكيراً باللّٰه، كوضع آيات قرآنيّة، أو أسماء اللّٰه الحسنى في أماكن بارزة، إلى جانب تغيير الروتين اليومي، فإذا ما كانت ذنوب الخلوات ترتبط بأوقات معينة من اليوم، فتغيير روتين هذه الأوقات فيه ردع ومنع لحدوثها، فيتمّ ملؤها بأنشطة إيجابيّة مثل قراءة القرآن، أو الذكر، أو الرياضة، كما أنّ التوّجه نحو بناء نظام دعم روحيّ من شأنه المساهمة في الخلاص منها، ويكون الدّعم من خلال إيجاد صديق مؤمن يمكنه أنْ يكون رفيقاً في هذه الرحلة، أو حضور المحاضرات الدينية، أو المشاركة في الأنشطة الخيرية، والإلتزام بالصلاة في المسجد، وطلب العون من اللّٰه في الدعاء والتضرّع، وجعل الاستغفار جزءاً من الروتين اليوميّ.

فضلاً عن أنّ الفرد يمكنه تحويل خلوته من مكانٍ للمعصية، لمساحة للنّموّ الرّوحيّ والتقرّب للّٰه تعالى أوّلاً، من خلال مناجاة اللّٰه في الخلوة، وشكره على نعمه، وطلب المغفرة على الذنوب، وطلب الهداية والتثبيت في الدنيا والآخرة، والتّوجّه نحو التّأمل في عظمة خلق اللّٰه، وقراءة القرآن بتدبّر وتفكّر.

وثانياً تحويل الخلوة لمدرسة للتربية الروحيّة، ففيها يمكن تعلّم الصّبر على الطّاعة والصّبر عن المعصية، والتحكّم في الشّهوات، وتقوية الإرادة بوضع تحدّيات صغيرة، كقراءة صفحة إضافية من القرآن، أو الصيام يوماً إضافياً، أو الاستيقاظ لصلاة الفجر، وتطوير الذكاء الروحيّ، كتعلّم كيفيّة قراءة إشارات اللّٰه في حياتنا، وكيفيّة تفهّم الحكمة وراء الأحداث التي تمرّ بنا.

ولاغرو من التنويه بأنّ الإنسان في رحلته التطهيريّة والتوبة من الذنوب، قد يتعرّض لانتكاسة، وهي جزء طبيعي من رحلة التطهير الروحي، فلا يجب أنْ يصيبه اليأس من رحمة اللّٰه، فاللّٰه الغفور الرحيم، وباب التوبة مفتوح دائماً، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:53)، ويتوجّب عليه أنْ يحلّل أسباب الانتكاسة ويتعلّم من الأخطاء، ويطوّر الأساليب لتجنّب الذنوب، ويعوّض ذنبه بحسنات، لقول اللّٰه تعالى:﴿ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾(هود:114)، ويعود سريعاً دون تسويف أو مماطلة، فيتوب فوراً ويكثر من الاستغفار، وفي ذلك حديث النبي صلّى اللّٰه عليه وسلم: "كلّ ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون".

وبعد،

فإنّ الخلوة الإنسانية، مرآة صادقة للروح، فيها نرى حقيقة أنفسنا دون أقنعة أو تجميل، وهي المكان الذي تتكشّف فيه طبيعتنا الحقيقية، ويظهر فيه جوهر علاقتنا باللّٰه، وقد تكون إمّا طريق هلاك أو نجاة، وقد تكون نعمة أو نقمة، وقرباً من اللّٰه، أو بعداً و نأياً عنه....

وهناك الكثير ممّن يعيش صراعاً مع ذنوب الخلوة، وهم ليسوا بمفردهم، فكلّ إنسان يواجه هذا التحدّي بطريقة أو بأخرى، والمهم هو الاستمرار في المقاومة، والثقة برحمة اللّٰه، واليقين بأنّه على الرّغم من طول الطريق إلى اللّٰه، إلاّ أنّه طريق مليء بالرحمة والمغفرة، وكلّما عدنا إلى اللّٰه بصدق، وجدناه أقرب إلينا ممّا نتصوّر، وكلّما صدقنا في توبتنا، أعاننا اللّٰه على نفسنا وهوانا، فالخلوة ليست لعنة، بل هي فرصة للتقرّب إلى اللّٰه، وفرصة للتطهّر من الذنوب، وفرصة لبناء علاقة أقوى وأعمق مع الخالق سبحانه وتعالى...

فلنجعل من خلواتنا مساحة نطهّر فيها أرواحنا من أدران الدنيا قبل مجيء يوم لا ينفع فيه ندم، يوم تنكشف فيه الصغائر قبل الكبار، يوم الانكشاف...يومٌ فيه تُجلى السرائرُ، وتُفضَح الخفايا..فلا "خاصّ" ولا "محميّ"، فكلُّ صورةٍ التقطتَها، وكلَّ كلمةٍ همستَ بها، وكلَّ نظرةٍ أسررتَها، وكلَّ ذنبٍ ظننتَ أنه خفيٌّ في عُزلتك - سينكشفُ على رؤوس الأشهاد.، يوم قال عنه اللّٰه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(سورة النور: 24)

اللهم اجعل خلواتنا طاعة لك، ومناجاة معك، وتقرّبًا إليك...اللهم طهّر قلوبنا من الذنوب، وأرواحنا من المعاصي، وأعيننا من النظر إلى ما حرمت...اللهم اجعلنا من الذين يراقبونك في السر والعلن، ويخشونك بالغيب، ويسارعون في الخيرات...

اللهم تقبّل توبتنا، واغفر ذنوبنا، وأصلح أحوالنا، واهدنا سبل السلام.

وآخر دعوانا أنْ الحمد للّٰه رب العالمين.